

## ليس هذا هو الطريق يا مسيو ديهامل !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

فرنسا تحس وتعلم غاية العلم أنها فقدت كثيراً مما كان لها في العالم العربي من أمكنة ومكانات ، وضيمت كثيراً من هيبتها وسمعتها لدى العرب ، وأن الثقة القديمة بالروح الفرنسي والثقافة الفرنسية أصابها كثير من الزللة والشك والمزال بعد تلك الصدمات التي طوحت بفرنسا وسحقها في معترك الأقوياء الذين أحاطوا بها من الشرق والغرب ، وبعد تلك المواقف غير الشرفية التي وقفها في سوريا ولبنان ولا تزال تقفها في المغرب العربي الواقع تحت حكمها القاسي الجامد المتعاضل عن تيارات الحريات التي تحيط بالناس وتفتح أعينهم على عالم جديد وتكسح الموائق والسدود فرنسا تعلم ذلك وتقدر ماله من نتائج على مستقبلها بل على حاضرها وتريد أن تتخذ الحيطة للاحتفاظ بما بقي لها من تلك السمعة المتداعية ولإنعاشها إذا أمكن ذلك حتى تعود إلى المكانة السامية التي لم تكن تدانها فيها حتى اجتلت ذات السيطرة الرسمية وذات العلاقات الوطيدة في كثير من البلاد العربية . . . لكن فرنسا من سوء حظها تخطىء في التماس الوسائل إلى إعادة سمعتها ومكانتها وتضطلع تلك الأساليب السطحية التي أصبحت لا تتصل بصميم ضمير الشعب العربي ووعيه ولا ترضى طبيعته التي شبت عن الطوق ولم تمد نطلي عليها تلك الدعايات التي تتصل بالترف الذهني والعلاقات الكيالية وإرضاء بعض الطبقات الموشكة على الانقراض في الحياة المصرية ، طبقات الصالونات والأندية التي تعيش بمعزل عن غمار الحياة اليومية المصرية والقومية العربية .

فإذا كانت فرنسا تريد أن تسلك السبيل القريبة إلى صداقة القومية العربية الناهضة التي أصبحت حقيقة سياسية ملغوسة يحسب لها حساب في الحاضر والمستقبل القريب والبعيد ، وإلى صداقة المصريين الحقيقيين بنوع خاص فليها أن تلتبس لذلك وسائله العملية وتترك أمر الدعايات الكلامية والسفارات الأدبية التي تجند لها بعض مفكريها وأدبائها كسيو جورج ديهامل للكاتب الشهير ومعلمهم مشقة السفر وعناء الرحلة والحديث المكرر الملول عن فرنسا وخدماتها للثقافة ثم لا يكون من

وراء ذلك طائل كبير ولا تبقى آثاره إلا ريثما يتقضى الحفل وتنفض - وامن الصالونات ولا يسب من ذلك شيء في أعماق المجتمع المصري يصح أن يكون ذخيرة أو ذخيرة لبناء صداقة عربية فرنسية تخدم الحضارة وتكون عاملاً من عوامل الاستقرار والتفاهم والتوازن في البحر الأبيض المتوسط الذي يحتل العرب الجزء الأكبر منه . فعلى فرنسا إن كانت تريد عملاً لا كلاماً أموراً ته ترشدها إليها لأننا أعرف من فرنسا بما يفتح قلوبنا لها: عليها أن تغير أولاً نظرتها «الصلبية» بالنسبة للعرب والمسلمين التي حملتها على احتقار المغاربة والعرب عموماً والتشكيك بهم ، وأن تتحرر من ذلك التوجيه الحاقد الذي يستمد حقه من تلك الظلال والأشباح السوداء التي كان يثيرها الثيرون المتمصبون في القرون الوسطى على العرب ويحملونهم أمام الجماهير حلفاء الشيطان ويتخذونهم وسيلة لاثارة ذلك الشعور الذي كان يسمى «الحقد المقدس» ! وتعلم فرنسا وخصوصاً مفكريها الذين تجندهم للدعاية ، أن نظر العالم لم يعد يطبق ذلك اللون السخيف الذي يبدو في محاولات المستعمرين الفرنسيين في شمال إفريقيا لفتنة البربر والعرب المسلمين عن دينهم ، وضرب الحصار على أبنائهم ليحال بينهم وبين التعرف إلى قوميتهم ولغتهم التي صحبتهم منذ فجر التاريخ .

إن هذا منكر غليظ ورجعية عمياء لا تريد أن ترى طبائع الأشياء وتحاول فصل ما ربطته مشيئة الله التي نوعت الناس أجناساً ولغات لأمر عظيم على جانب من الخطر في عالم الفكر وعالم العمل وعلى فرنسا أن ترفع يدها عن ضرب ذلك السور الحديدي حول تونس والجزائر وصنها كمش ، ذلك السور الذي لا يسمح لداخل غريب أن يدخل ولا لخارج أن يخرج ولا يسمح لليون الناس أن يروا آثار حكمها السعيد ! في حياة هؤلاء الأرقاء التعساء الذين ابتلوا بأن يعيشوا في أوطانهم كأنها سجون ، الداخل فيها مفقود والخارج منها مولود؛ فإن هذا أهجوبة الأعاجيب في القرن العشرين ، حتى ولو كانت هذه البلاد مستقلة استقلالاً تاماً ومحكومة ذلك الحكم بأيدي فريق من أبنائها لكان ذلك النوع من ضرب الحصار الحديدي عليها أسلوباً عجيباً في هذا العصر وعلى فرنسا أن تقلع عن سياسة الإفقار والتجهيل التي تفرض بها البؤس والجهل على سكان هذه البلاد وتمزلم بذلك عن حياة العالم وتفتيحهم الفناء الأكبر بحرماتهم من وسائل العلم المصري الذي يجعلهم أبناء حقيقيين لزمانهم يساهمون في خدمة المعارف الإنسانية وفي إمداد شملة الحضارة ومد نورها على ديارهم

الآلام الإنسانية التي عانت فرنسا حرارتها وحرارتها فترات مظلمة من الزمان البعيد قبل الثورة التي حولت مرارتها حلاوة وحرارتها نداءً، وفترة مظلمة من الزمان القريب الذي لا يزال وقع الحذاء الألمانى فيه على أرض فرنسا يصيح أذان أحرارها !

يا مسيو ديهامل ! أيها الأديب الكبير ! إننا هنا في الشرق ندعو أن يشور المفكرون على الواقع السيء الذى يسيطر عليه العوام وأن تتحرر الروس من سلطان الأقدام ، والجمامات من منطق الشوارع .. لأننا نرى في هذه المدينة الحالية مدنية الحرية والعلم نبوة شيوعية من لم يؤمن بها فقد صبا عن الإنسانية ، ومن سخرها بنير أهلية لها فقد ألد فيها ، مع أننا لا تزال في دور فتح العيون على فجرها ولم نأخذ منها ما أخذتم ممشر الفريين ، وليست منسوبة إلينا ، بل تنسبونها أنتم إليكم . فلماذا لا تدافعون عن سمعتها وعن حقائقها دفاع أنبياء إسرائيل الشرقيين القدماء عن حقائق الإيمان والنبوات الأولى ؟ لماذا لا تدققونها بأرواحكم وقلوبكم بدل ذواقها بيجيوبكم وخزائنكم ؟! لماذا تجملون رسلها إلى بلاد التخلفين هم من السهارة والتفطرسين والحاقدين والمتمالين ؟ إن اللوم في ذلك واقع على أرباب الفكر الذين يرون هذا ولا ينكرونه ، ويرضون لأقلامهم وألسنتهم أن تسخر وراء القطيع الذى لم يدرك أمانة الفكر وحراسة شعلة الحضارة في الروح قبل الجسد وما أظنك ترضى لو علمت أن أربعين ألفاً من العرب الجزائريين قتلوا في « سطيف » بالجزائر ، لأنهم طالبوا بحريتهم في أيام الاحتفالات بميد النصر سنة ١٩٤٥ ؟

إن صراخ دم هؤلاء الضحايا يجب أن يورق نومك ويعد قلبك بعداد من نار لتشار من قتلة هؤلاء الأحرار الذين طالبوا بالحرية التي يعجدها قلبك وأقلام إخوانك وإلا كنت غير مخلص لرسالة الفكر وما أظنك ترضى أن يعيش خمسة وعشرون مليوناً من النفوس محرومين من عصارة فكرك وفكر أمثالك ومعارف الدنيا لأجل أن يكونوا سواهم بلهاء تحرث أرضها وتحلب ضرعها لتستولى عليه عصابات المستعمرين الرأسماليين في فرنسا ؟ واعذرنا إذا كنا نتهكم ونسخر مما تقول ويقول أمثالك عن فرنسا وروحها الحر وميراث ثقافتها ، مادنا نرى أن هذه كلها بضاعة تستهلك في فرنسا ولا تصدر إلى الخارج ..

هذه كلمات صادقة أردت أن نخلص إليك من بين مجاملات الصالونات ، وأنا أعلم أن واجب مثلك أن يحرص على سماع الصدق الصريح .  
عبد النعم موقوف

وم من أذكي الناس وأشدهم جلدًا على التعلم والعمل . وإذا نسى التاريخ مخازى الأمم فلن ينسى لفرنسا أنها تتخذ سياسة تجهيل المغاربة عمداً وترسم لذلك الخطط وتستغنى مفكرها إهدوا فريقاً من الناس إلى طريق الجهالة العمياء ، ويصرفونهم عن طريق المعرفة البيضاء ! إن هذا أكبر عار يلحق بفرنسا ، وإنه لأكبر « ارتداد » عن رسالة العلم ، وإنه لجدير أن يحزى وجهها يوم يستعرض علمها أمام هيئة الأمم المتحدة وينشر على رءوس الأشهداء في يوم آت قريب وإني لا أذكر لفرنسا هذا الموقف المحزى إلا أشعر أن نخط الإنسانية كلها لا القومية العربية وحدها يتبر في دى القشمية والاشترازاو على فرنسا أن تسير مع الزمن في علاقتها السياسية بشمال إفريقيا وأن تتطور كما يتطور غيرها في ارتباطاتها بالشعوب العربية التي بينها وبينها مصالح ، وأن تعلم أن الفجر الدولى قد سطع على العالم وكشف أوكار الرجعية والاستبداد ولن يخفى على العيون ما تفعله فرنسا في إفريقيا مهما خيل إليها أنها ستصل إلى غايتها الظالمة في غفلة عن الرقبا ، وأن تفلح عن خرافة سلخ أى جزء من المغرب من جسم العروبة لضمه إليها فإن ذلك لن يكون لها يوماً ما ، لأنه بناق طبيعة التكوين وحقائق السياسة العالمية الراهنة فيا مسيو ديهامل إن كان عليك لوطنك واجب فليكن للإنسانية مثله والفكر المخلص إنسان تملكه الإنسانية كما تملكه وثنية الوطن فإن كنت تريد أن تعيد مجد فرنسا لامعاً واسمها عالياً كما كان فسخر قلبك للدفاع عن الحقائق الإنسانية العليا الأبدية التي تحتل الحرية فيها مكان الصدارة واجعل فرنسا أم الحرية في زعمكم لا تنكس لواء الحرية ولا تمرغه في الوحل والدم في الجزائر ومراكش وتونس .

وإذا كانت فرنسا هي حياتك — كما حضرت المصريين — فاجعل حياتك هذه صورة مما ينشد فكرك الحر وأدبك الحار وقلبك العاير لا كما ينشد الفرنسيون الرجيمون الحاقدون والمهارة والدجالون والجاهلون اللاعبون بالشعوب الذين لا يدركون سير الحياة بالأحياء ولا يعرفون منطق هذا العصر الذى يعيشون فيه بثياب المتحضرين . وجلود الأدميين بينما قلوبهم هي قلوب القردة ووحوش القاب ..

وإنها رسالة لك في فرنسا إذا أردت : أن تعود إليها رسول آلامنا من أجل بنى قومنا الثخينين بجراح بنى قومك ! وقد أرسلتك إلينا « الحياصة » التي لا قلب لها لشأن من شئوننا الخادعة ، فارفض أيها الكاتب أن نخدع . وعد إليها رسول